ثقافة: طمس الحقائق

حسن عبد الله

إنّ مراجعة المواقف والأفكار أمرٌ تلقائي لدى الانسان، يحدث دائماً بعد الصدمات صدمة حبّ مثلاً، تجعلك تعيد النظر وبصورة فورية، في سيرتك العاطفية مع من تهوى. صحيح ان ذلك يأتي بعد فوات الأوان، ويأتي ممزوجاً بالمرارة والندم، لكن ذلك لا يخلو من فائدة خاصة وانك قادم غداً على تجربة حبّ عاشرة. هذا عن الحب.. أما الحرب... هل ستراجع افكارك ومواقفك بعد الحرب؟ هل ستحكي عن مسببات أوجاعنا وخيباتنا المتلاحقة؟ إفعل ذلك إن كنت رجلاً... لا. لا نريد منك أن تندفع هكذا فجأة إلى وسط الساح.. نريد أن تحدّثنا فقط عن حبّك لأمك. أو عن حبك لحبيبتك.. أو للوردة.. أو للصباح.. او للجمال بوجه عام. افعل ذلك بجرأة وصدق وستجد نفسك وجهاً لوجه امام قوى جبّارة لا تريد منك أن تفعل ذلك بحريّة. فالمؤسسة العربية القائمة، سواء كانت دولة أو حزباً أو مزرعة أو مدرسة، تريد من الكاتب والمثقف أن يحب أمّه كما تحبّ «هي المؤسسة» أمها، وأن يرى جميلاً ما تراه «هي المؤسسة» كذلك... مع انه ولا مرّة في التاريخ اتفق شاعر أو مفكر حقيقي مع ضابط أو رئيس بلدية. دائماً كان مزاج المفكر والمبدع يتنافر مع مزاج الوزير والحاجب وصاحب الشرطة. فإذا كان المناخ في المكان ديمقراطياً انتصر الإبداع، وإذا كان «الطقس» شتاءً تنتصر عصا الحاجب، ويخمد صوت الكاتب إن لم تخمد روحه.

نحن نراجع باستمرار افكارنا ومواقفنا. نحن لا نفعل شيئاً سوى ذلك. إننا نراجع ونراجع بلا كلل. كل يوم وكل دقيقة نعيد قراءة الواقع على ضوء حادث جديد. لأنه كل يوم ودقيقة يحدث ما لم يكن في الحسبان.. الساعة الآن هي العاشرة ليلاً.. افتح الراديو.. أو افتح الجريدة.. أو افتح باب بيتك وستسمع صراخاً ولغطاً يصدران عن حدث قومي خطير. أمس كنت تعتقد كذا، والآن عليك أن تعتقد العكس! كنت البارحة تظنّ شيئاً والآن عليك أن تظن خلافه. منذ دقيقتين كانت هذه الهرّة سوداء كالفحمة.. ولقد حدث الآن ما أقنعني بأنها ناصعة البياض! وهبْ أنك توصلت أخيراً الى يقين مكين من ان الديمقراطية أفضل للوطن والأمة من عدمها، فهل تستطيع أن تجهر بذلك؟ هكذا أنا دائماً، أنتهز كل فرصة لكي أجرّ الموضوع للحديث عن الديمقراطية. يقول البعض إن سبب ذلك نفسيّ. ففي طفولتي، على ما يروي الأهل، شاهدت فتى يجرّه رجال الدرك من طرف سترته ويركلونه على قفاه بسبب مظاهرة من أجل الجزائر. ومن يومها تعقّدت! وما أزال على عقدتي تلك. فإما ان يكفّ العسكري ووزير الثقافة عن التدخل فيما لا يفهمه أعني: الحبّ والحرية والتقدّم ومناضلة

التخلّف والاستعمار، أو ان الأمور ستتدحرج من سيء إلى أسوأ. أروع الكتاب والمثقفين العرب ــ هؤلاء الذين على عاتقهم وحدهم كانت تقع مهمّة غربلة التجارب القاسية واستخلاص الدروس والعبر منها، هؤلاء الرائعون مُسِخوا بمعظمهم أو خُتِم على أفواههم وضمائرهم بختم الإدارة الرسمية. وقليلون هم الذين استعصوا على الأرهاب والتدجين وظلّوا يتحركون في إطار حرياتهم الخافتة الصغيرة.

الإشارة في سؤالكم إلى ما يتهدّد الجيل العربي القادم من يأس واستسلام هي تنبّؤ في محلّه. فاليأس يملأ البيوت والساحات والأندية والشوارع والكتب والأغاني، ويلوحُ الإستسلام لذيذاً كالنوم بعد أرق طويل. إن الاحباطات المتلاحقة التي مني بها جيلنا ولّدت عنده اضطرابات معوية دائمة. وضيقاً في التنفس. وتلفاً في الرئتين والكبد. وقرحة في المعدة. وانحلالاً في الأعقاب. ورعباً مستمراً من ذبحة قلبية مفاجئة. هذا الجيل بدأ يجد لذة في التنزّه في الضواحي الهادئة للعدم واللامبالاة. إن اشرس معركة نخوضها هي هنا... قد تفقد طائرة فتشتري غيرها. لكنك عندما تفقد الإيمان بنفسك وبقومك وبالتاريخ فإنك لا تستطيع أن تبتكر إيماناً جديداً. إن كوناً بكامله يتهاوى من حولك، وعلى كتفيك الهزيلتين تلقى يومياً أطنان المسؤوليات.. وأنت الكاتب والمثقف، أنت وحدك، عليك أن تصغي لتسمع ما لا يُسْمَع وأن تحدّق لترى ما لا يُرى، وأن تظلّ مشيراً بأصبعك الوقحة إلى حتمية النصر. ذلك لأنك ما تزال تعيش بوجدان رجل أحبّ الحياة والعالم وحلم بالعدالة الشاملة ذات يوم. هل أدركتك الشيخوخة؟ إذا كان ذلك قد حدث فآعترض الأطفال الغادين الى المدارس في هذا الصباح الشتوي، وامنحهم فاكهة تجربتك المرّة. اشهد فقط. قل: عشت ورأيت...

اتكلّم من لبنان. حيث الأرض ما تزال ترتجّ والدخان الداكن الكثيف يحجب الأفق. الدبابات الاسرائيلية على التلال. ومصير البلد ما يزال مفتوحاً على أسوأ الإحتمالات. مصير لبنان. ومصير الشعب الفلسطيني. ومصير العرب جميعاً: واتكلّم وحولي ما تزال تضجّ أهوال الحرب الماضية واشباحها ورموزها ومغزاها الرهيب، وأتكلم ولا مطمح لي ككاتب إلا أن اكون شاهداً صادقاً على ما حدث. لا أرجو فيما تبقّى لي من العمر إلا أن أصوّر تجربتي الفردية ــ فقط تجربتي الفردية ــ وأعانني الله على ذلك. أحياناً افكر: هل سأستطيع أن أحكي كل شيء؟ وإذا لم استطع فمن الذي سيحكي ما كنت سأحكيه؟ الجواب: لا أحد: لا المؤرخ، ولا كاتب البيان السياسي، ولا المعلّق الاذاعي سيأتي على ذكر ما رأيت وسمعت واكتشفت. هؤلاء سيكونون مشغولين باختلاق الأعذار والتبريرات، وبتجميل الفاجعة، ولن يتردّدوا في جعل الكارثة عيداً! إنها ثقافة طمس الحقائق، والاحتيال على الواقع بواسطة الكلام، هذا الطقس السحري البدائي. والمطلوب، بديلاً عن ذلك، ثقافة جديدة جريئة وقاسية تترجم الوجدان العربي المثقل بالتعاسة والشؤم وتستنبط من واقعَ الهزيمة المرّ حلاوة الكفاح من أجل التغيير.

بيروت